

كتاب ابن الرومي

للأديب الكبير

السيد مصطفى صادق الرافعي

نشرنا في الجزء الماضي (ديسمبر سنة ١٩٣١) القسم الأول من هذا النقد الصحيح،
والذي تفضل به إمام اللغة وعلم العربية السيد مصطفى صادق الرافعي، وننشر الآن
القسم الثاني وهو بقية المقال شاكرين...
المحرر

يجيء في كتاب العقاد باب يملأ ١٨٦ صفحة لا يستوفيهما القارئ إلا بعون من الله،
وكان الله سلبط على ابن الرومي طولا بطول... وثرثرة بثرثرة.. وهذا الباب في استخراج
حياة ابن الرومي من شعره، وهو الذي بنى عليه الكتاب، ومع ذلك فهو أقبح عيوبه، إذ
لا يؤرخ الشعر قائله، وخاصة إذا كان يمدح لينال، ويهجو لينال، ويحتال لينال، وليس عنده إلا المنالة،
فمثل هذا الشاعر يكون أكثر كلامه بضاعة وصناعة، ولصناعة الكلام حكمها، فالشعر فيها
منافسة بين القائلين بها والعائشين منها، لا ينظم أحدهم معنى إلا نافسه الآخر في المجيء
بمثله، وما أحسبك تحكم على المغنى بأنه متدله في الحب لأنه يتغنى به، إذ كان لا يتغنى بالحب
إلا ليضطرب سامعيه، ولا يضطربهم إلا للأجر والمنالة.

ثم الشعر مبالغات ومتناقضات، وبخاصة عند ابن الرومي، فطريقته التي اشتهر بها هي
تقضى المؤلف والخلاف على الناس، لامن عقيدة ولا من رأى ولا فلسفة، بل صناعة جدل وبرهان
لاظهار اقتداره على القول واتساعه في مذاهبه حتى قال المعري، وذكر ما يقوله البغداديون
في تشييعه واستدلالهم على ذلك بقصيدته الجميمة: ما أراه إلا على مذهب غيره من الشعراء،
وهذه السبارة أوردها العقاد في كتابه ولم ينههم، فظن أن المعري لم يطلع على شعر ابن الرومي!!!
خفيت عنه حقيقة مذهبه.. قلنا: ولكن المعري — وهو قريب من عصر ابن الرومي — يعلم
أنه من العبث استخراج حياة الإنسان من شعره، وأن مذهب الشعراء أنهم يقولون ما يفعلون،
ويتقربون لكل إنسان من طريقه، لا من طريقهم، إنهم لا يذهبون بالشعر إلى دورهم أو
إلى دور الكتب، بل إلى القصور والدواوين ونحوها، وهذا البحترى قالوا: إنه كان يكتب
أبا عيادة، ولما دخل العراق تكتب أبا الحسن... ليقرب بهذه الكنية إلى أهل النباهة والكتاب

من الشيعة ، فهذا معنى قول المعري : ما أراه إلا على مذهب غيره من الشعراء .
ولم يفت العلماء أن يذهبوا على طريقة ابن الرومي وكذبه على الأشياء والحياة . فقال الجرجاني
في كتاب (الكنايات) بعد أن أورد شعره في مدح الحسد : وابن الرومي في قدرته على
الكلام وتمكنه من التصرف في شعره يصف الأشياء بغير صفتها ، ويحليها بغير حلاها ، فقال
يمدح الموت وخالف الناس (١) :

قد قلت : إذ مدحوا الحياة وأسرفوا في الموت ألف فضيلة لا تعرف
منها : أمان لقائه بلقائه وفراق كل معاند لا ينصف
هذا ابن الرومي يمدح الموت ويقول فيه ألف فضيلة ، مع أن العقاد يستدل بشعره
على أنه كان يعبد الحياة ... !

ويقول المرتضى في كتابه (الشيب والشباب) بعد أبيات لابن الرومي في الخضاب :
وجدت ابن الرومي يتصرف في هذا المعنى ويعكسه .. وفلسفة هذا الرجل في شعره ، وتطلبه
لطيف المعاني مع إعراض عن فصيح العبارة وغريبها ، وإن كانت مذمومة في الأغلب الأكثر ،
ربما أثارت دفيناً (٢) .

وسر ابن الرومي كله — وهو ما لم يتنبه إليه أحد إلى الآن — أنه تقل الطريقة الكلامية
إلى الشعر ، وكان رجلاً متكلاً ذا جدل وبيان ، وقد رأى أساس هذه الطريقة في شعر أبي نواس
وابن الضحاك وغيرهما ، وفي شعر علماء الكلام : كبشر بن المعتز ، فوافقت منه هوى وطبيعة ،
فقصدها وبني عليها وتوسع فيها حتى تقرر له وعرف بها ، وتلك هي الطريقة التي تقرر بها
المذاهب الأدبية ، فابن أبي ربيعة بنى مذهبه على أبيات أعجبت به من كلام امرئ القيس ، وأبو نواس
بنى على الأعشى ، وأبو تمام بنى على مسلم ، وهكذا . وفي كل قصيدة من قصائد ابن الرومي
ترى ملكة الشعر وملكة الجدل تتصارعان وتتجاذبان ، وهذا سر سفسفته ، وهو الذي يبعثه على
استيفاء المعنى إلى آخره وإماتته حتى لا يترك فيه بقية ، كما أنه هو السبب الذي نهض عند الناس بمقاطيعه
وسقط بقصائده حتى مات أكثر ديوانه ، وحتى ثمانه لم يقل إلا أحياناً ومقاطيع . وهذا
الأديب الكبير القاضي الجرجاني يقول في كتابه (الوساطة) : نجد (كثيراً) ينتحل تفضيل
ابن الرومي ويغلو في تقديمه ، ونحن نستقرى القصيدة من شعره ، وهي تناهز المائة أو تربي أو
نضعف ، فلا نعثر فيها إلا بالبيت الذي يروق أو البيتين ، ثم قد نسلخ قصائد منه وهي واقفة
تحت ظلها ، جارية على رسلها ، لا يحصل منها السامع إلا على عدد القوافي وانتظار الفراغ ... (٣)

(١) لم يذكر العقاد في كتابه هذا النص .

(٢) لم يذكر العقاد هذا النص في كتابه أيضاً مع أنه رأي عالم محقق دقيق يصح أن يؤخذ رأيه في أسلوب ابن الرومي
على أنه رأي عصره .

(٣) هذا النص مما فات العقاد أيضاً ، فلم يذكره في كتابه .

وابن الرومي نفسه كان يعرف أن طريقته هذه مردولة لا تقع بالموافقة ممن يمدحهم ، فيقول في شعره لمددوح :

أول ما أسأل من حاجة أن يقرأ الشعر إلى آخره

أهي قصيدة ويلك ؟ أم هر ضريبة قراءة على الممدوح؟!

إن العقاد في زعمه استخرج حياة ابن الرومي من شعره ، وإغفاله كل ما مر بك ، هو في رأينا كالذي يزعم لك أن بالعة الدجاج المسكينة هي أكثر الناس أكلا للدجاج واستمتاعا بلحمه ، مستدلا على ذلك ، بكثرة عندها وقدرتها عليه أي وقت شاءت ، ويذهب عنه أن هذا الدجاج إن كان عند الناس لهما يؤكل فهو عند هذه المسكينة مال يجمع .

وفات العقاد في استخراجه أن يزعم أن ابن الرومي كان يبغض القمر ... لقوله في ذمه :

يا سارق الأنوار من شمس الضحى يا مشكلى طيب الكرى ومنغصى

كما فاته أن يستدل بهذا على أن ابن الرومي لم يكن يجد النوم في الليالي المقمرة ... وهذا يدل على أن داره كانت متهدمة ، فإذا طلع القمر وقع في مخدعه لا يستره شيء ، وبقي طول الليل فوق عيذه فلا ينام ، لأن أجفانه بالغة كل مبلغ من الضعف والاحتياج ...

أرأيت إلى أين تنتهي طريقة الاستدلال بالشعر على الحياة ؟ وانها تحكم على ابن الرومي بأنه جلف لا يدرك معنى الجمال في القمر ، فمن ثم ليست فيه طبيعة فنية ، ولا يصغى إلى سر الحياة ولا ولا .. إلى أن تنقض بهذا البيت وحده كل ما زعمه العقاد فإذا كتابه كتاب مزور .

ومن أغرب ما استخرجه المؤلف ما زعم أنه وصف لابن الرومي وكله تليفق ، ومن أعجبه قوله : كان إذا مشى اختلج في مشيته ، ولاح للناس كأنه يدور على نفسه ، أوليغربل لاختلال أعصابه واضطراب أعضائه ، واستدل على ذلك بقوله :

إن لي مشية أغربل فيها آمناً أن أساقط الاسقاطا

قال : وهذه المشية معروفة تدل عليها حركة الغريلة ، وتكثر فيمن بهم خلل في العصب أو العضل . قلنا : لم يفهم العقاد معنى « يغربل » فإن مشية الغريلة كناية عن معنى آخر ، إذ رمى بعضهم ابن الرومي بالتخنث ، واستدل بمشيته تلك - وهي مشية فيها ترجرج وتقتل يهتز بها المنكبان ويقبل الوجه مرة إلى يمنة ومرة إلى يسرة كما تصنع المرأة إذ تنفض الغربال فيرتج عطفها على حركته ، وتلفت وجهها عن يمين مرة ويسار مرة لتنفخ ما يخالط القمح من التراب ونحوه - فكأن قولهم « يغربل » كناية عما وراءها ، كما يكون عن الشيخ الهرم الفاني بقولهم « يعجن » لأنه لضعفه إذا قام عن الأرض اعتمد على جمع كفيه كما يفعل العاجن ، فأقر ابن الرومي الوصف ، وقلبه على طريقته من الذم إلى المدح بالتكلمة التي زادها عليه .

ثم هذه المشية لا تكون من ضعف ولا خلل في العصب ، وإنما ينشأ الناشئ عليها تقليداً

ومحاكاة ، وقد رأيناها في رجال أقياء ، ولا يقال فيها إن صاحبها يلوح للناظرين كما نه يدور على نفسه ، فما فيها غير رجفان المنكبين وتلفت الوجه ، أما تلك التي يستدير فيها الجسم فهي مشية خاصة بالنساء ، يقولون زافت المرأة إذا فعلت ذلك .

وتكلم المؤلف عن عبقرية ابن الرومي ، فزعم أنها عبقرية يونانية (١) ، وبني على هذا بناء من الرمل لا يكاد يرفعه في صفحة إلا انهار في التي بعدها ، بل جاء هو في آخر الفصل يقول : « خصبنا إذن من كلمة العبقرية اليونانية أنها مفهومة بلغة الآداب ، وإن لم تكن مفهومة في لغة الأنساب ... يعني أن ابن الرومي ذو عبقرية يونانية وإن لم تكن يونانية ... أما إنه كذلك لأنه من سلالة اليونان ، فذلك قول لا نجزم به ولا نجزم بنفيه لأنه يستطيع أن يكون كذلك ولو لم يكن من تلك السلالة »

تقول إذن فلامعني لتسميتها عبقرية يونانية وإن كانت واقعة على مواقعها عند اليونان ، بل أخرى بها أن تسمى عبقرية عربية وإن لم يكن لها شبيهه عند العرب ، مادام ابن الرومي يستطيعها ولو لم يكن رجع إليه شيء من الوراثة اليونانية .
إن كانت كلمة العقاد ثناء على ابن الرومي فلبئس ما أثني ، لأن الأدب العربي هو الحقيق أن تنسب إليه عبقرية خص بها صاحبها الذي لا يعرف غير العربية وكان بها ذا قدرة « سبق بها الشعراء في الأمم كافة بغير شك ولا تردد ، هي قدرته البالغة على تقل الأشكال الموجودة كما تقع في الحس والشعور والخيال » صفحة ٣٩٢ . « ويستخدم السخر في الهجاء والمديح والمطايبة والمعاتبة ، ويعرض لك في متحفه الكبير تلك الصور الهزلية التي لا مثل لها في شعر واحد من شعراء العالم كله » صفحة ١٣٩ .

إننا نقف خاشعين عند هذا التحقيق العلمي الدقيق المحيط بشعر شعراء الأمم كافة والعالم كله في قدسه وحديثه ، ويسرنا أن تكون مصر قد خصت براوية يروي لكل أمة من الأمم كافة شعر جميع شعرائها في العالم كله ... ونسلم للعقاد أنه اطلع على كل ذلك وحققه ورواه ، ولكننا لا نسلم له أنه اطلع على الشعر العربي ، وإلا فليأتنا بدواوين : بشار ، وابن هرمة ، ومنصور ، وأشجع ، وابن الضحاك ، والوراق ، وابن الجهم ، وابن بسام ، وعشرات ومئات بعد هؤلاء وقبل هؤلاء ، وهل قرأ شعر محمد بن العزيز الذي نظم قصيدة تربي على أربعائة بيت في وصف حاله وتنقله في الأديان والمذاهب والصناعات ؟ وهل وقع إليه ديوان الواساني الذي خلف ابن الرومي في طريقته ، وقال فيه الثعالبي : « أعجوبة الزمان ونادرته ، كان في زمانه كابن الرومي في أوانه » ؟ وهل قرأ ديوان ابن حجاج الذي اتفرد بطريقة في الهجاء والسخر أسقطت ابن الرومي ، وعفت على ديوانه وبلغ شعره خمسين الف بيت ، وقال فيه الثعالبي : « ديوان شعره أسير في الآفاق من مثل ... كثيراً ما يبيع ديوان شعره بخمسين ديناراً إلى سبعين .. » ؟ وهل قرأ شعر ابن بسام الذي كان يقلده ابن الرومي في الهجاء ويسرق من معانيه وهو معاصره ، وقد هجا الخلفاء والأمراء

(١) هذه الكلمة مسروقة من لغة الأدب الأوربي .

والناس جميعاً وأباه وأمه ؟

قبل أن يزعم العقاد تلك المزاعم الفارغة عن شعر شعراء الأمم كافة والعالم كله ، يجب أن يثبت لنا أنه أحاط بالشعر العربي وحده ، وأنه استخرج من ذلك أن ابن الرومي منفرد فيه . أما التهم بغير علم ، والزعم بغير دليل ، ودعوى الثقة واليقين بلا برهان صريح ، ولا دالة قاطعة ، فهذا كله ضرب من صناعة الكتابة الصحافية ، لا من صناعة التحقيق التي لو استعرضنا بها الكتاب صفحة صفحة ، ومسئلة مسئلة ، لخرج أكثره تلقيقاً وإغراقاً ، وتزييداً وجراً للكلام على الاقتسار والمكارمة ، كما ترى في هذه المسئلة التي حشرها حشراً في صفحة ٣٢٢ ليتباصر بأنه يعرف النحو ، وهو من أجهل الناس ، إذ قال عن ابن الرومي :

« أما لفظه من حيث هو صحيح أو خطأ ، فلفظ عالم بالنحو ، مطلع على شواهد العربية ولا سيما في القرآن ... ومن هنا لم يذكر كلمة « أشياء » إلا ممنوعة من الصرف ، وهي مصروفة في قول القياسيين من النحاة لأنها جمع شيء ، فهي أفعال جمع فعل ، وليست فعلاء مؤنث أفعّل ، (كذا كذا ...) التي تمنع من الصرف . وإنما تابع المتسرين في هذا ، ولم يتابع القياسيين من النحاة ، لأن كلمة « أشياء » وردت في سورة المائدة ممنوعة من الصرف ... وتعليل المتسرين لذلك : أن « أشياء » اسم جمع كطرفاء ، غير أنه قلبت لأمه فجعلت لفعاء ، وقيل أفعلاء حذف لأمه ، جمع لشيء كمين ، أو شيء كصديق خفف ، وهذه المخالفة للنحاة القياسيين هي كما ترى أدل على العلم منها على الخطأ .

فما الذي يفهم من هذا الخلل ؟ يفهم أن « أشياء » مصروفة عند القياسيين من النحاة ، وممنوعة من الصرف في القرآن ، فذلك عللها المفسرون غير تعليل النحاة (طبعاً) واتبعهم ابن الرومي ، فكان هذا أدل على العلم منه على الخطأ ، أي منع الصرف خطأ في ناحية ، والصرف خطأ في ناحية أخرى ، فكان النحاة القياسيين يخطئون القرآن . ولكن في أي كلام وردت « أشياء » مصروفة ؟ ومن هم النحاة الذين يقولون بخطأ منعها من الصرف أو يجيزون صرفها ؟

كل ما في هذه المسئلة أن النحاة رأوا الكلمة ممنوعة من الصرف ، ورأى بعضهم أن القياس كان يقتضي أن تكون مصروفة ، فذهبوا يعملون بعلم مختلفة تسويغاً لمنع الصرف (١) . أما الكلمة فهي هي حيث وقعت ، فلا تثبت لابن الرومي علماً ولا جهلاً ، وإن أثبت للعقاد أنه ظفر بمسئلة من مسائل التصريف قلها ولم يفهم منها شيئاً .

وبعد ، فما أحق ابن الرومي أن يقول في كتاب العقاد عنه :

وكانت أيكنتي ليد اجتناء فعادت بعده ليد احتطاب ...

مصطفى صادق الرافعي

(١) استوفى هذه العلل كلها صاحب (تاج العروس) في مادة (شاء) وبسط الكلام عليها ورجع منها ، فليرجع إليه القارئ إن شاء .